

حيلة ولا يهتدون سبيلاً، فهم بُلَّةٌ لا يميزون، وتقصيراً كمن لا يفتشون عن الحق، بغية أريحية الحياة، أم عرفوه ولكنهم تركوه دون كراهية له نفسه، وإنما كراهية التوبيخ من قومهم وأن يقولوا ترك دين آبائه.

هؤلاء هم منجرفون مع الهوى، منحرفون إلى كل ردى، يهوون أن يتبع الحق أهواءهم، كأنهم آلهة بأهوائهم الطائشة وعلى الحق أن يتبعهم حيث جعلوا آلهتهم أهواءهم فآلهتهم عما يعينهم:

﴿وَلَوْ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ بَلْ أَتَيْنَهُمْ بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَنْ ذِكْرِهِمْ مُعْرِضُونَ﴾ (٧٦)

«لو» تحليل ذلك الاتباع المفروض المرفوض في كل الحقول عند أرباب العقول، فلو كان الحق - المطلق، المعصوم عن كل زلل وخطأ - موافقاً لأهوائهم القاحلة الجاهلة، لعاد كلُّ إلى ضلاله وأوقع كلُّ في بطله وكراله، حيث الحق يدعو إلى المحاسن والمصالح، والأهواء تدعو إلى المساوئ والمقابح، فلو اتبع الحق قائد الهوى لشمّل الفساد وعم الاختلاط وخفضت أعلام الهدى، ورفعت أعلام الردى.

ولا تعني ﴿أَهْوَاءَهُمْ﴾ فقط الشريرة منها التائهة، بل والخيرة أيضاً والعاقلة، حيث المتَّبِعُ الصالح لإدارة شؤون التكوين والتشريع هو الحق المطلق، لا الحق الخاطيء كالعقول غير المعصومة، فضلاً عن الباطل المطلق، فـ «الحق» هنا هو الله، والأهواء هي من غير الله عقولاً أم أهواء سواها، فـ ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ﴾ (٣) ﴿إِنَّ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ (٤) ﴿١﴾.

أجل وفي اتباع الحق لسواه - أيّاً كان - اختلال كافة الموازين والمقاييس في السماوات والأرض ومن فيهن، وكما في تعدد الآلهة المدبرة والمشرعة.

فالحق المطلق واحد ثابت لا يتقلب في تغلبه، والأهواء عاقلة وسواها كثيرة متقلبة، وبالحق الواحد يدبر الكون كله تكويناً وتشريعاً فلا ينحرف ناموسه لهوى تعترض، ولا تتخلف سنته لرغبة طارئة ﴿بَلْ أَيْنَهُمْ بِذِكْرِهِمْ﴾ الذي يذكرهم عن قصورهم وتقصيرهم، عن غفلتهم وغفوتهم، ويذكرهم لما يتوجب عليهم في صالح حياتهم ﴿فَهُمْ﴾ أولاء الحماقى ﴿عَنْ ذِكْرِهِمْ مُعْرِضُونَ﴾!

فالقرآن ذكر جملة وتفصيلاً، ذكر للفظر والعقول والقلوب، ذكر عما نسيه أصحابها أم تناسوه، وذكر لما ستر عنهم من فصائل المعارف وفصائلها وهم يطلبون أن يتبع الذكر الحق وحق الذكر أهواءهم الخاملة غير الكاملة، فحتى لو اتفقت أهواءهم العاقلة على شيء لم تكن لتأتي بالحق المطلق، فضلاً عن أهوائهم الجاهلة، أم المختلقة في هذه أو تلك كما هي الواقع فيها على أية حال، فالفساد - إذاً - آت من بعدين اثنين: قصور الأهواء، وتضادها، فليكن الحاكم المطلق هو الحق المطلق لا سواه.

﴿أَمَرَ تَسْأَلُهُمْ خَرْجًا فَخَرَجَ رَيْكَ خَيْرٌ وَهُوَ خَيْرُ الرِّزْقَيْنِ﴾ (٧٢):

﴿أَمَرَ تَسْأَلُهُمْ خَرْجًا﴾ رزقاً على أتعاب الدعوة، وليس يسأل، وذلك تذكير لهم أنه يدعوهم إلى الله دون أن يسأل خرجاً ﴿أَتَّبِعُوا مَنْ لَا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾ (٧١) (١) فكل الموانع في تقبل الدعوة - مادية ومعنوية أما هي - زائلة، وكل الدوافع لتقبلها حاصلة ماثلة:

﴿وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ (٧٣):

«إن واللام» تأكيدان اثنان لانهصار هذه الدعوة إلى صراط مستقيم، وانحسارها عما يبعده أو يميل عنه، وقد ذكر لنا أن نبي الله ﷺ لقي رجلاً فقال له أسلم فتصعب له ذلك وكبر عليه فقال له النبي ﷺ: «أرأيت لو كنت

(١) سورة يس، الآية: ٢١.

في طريق وعبرٍ فلقيت رجلاً تعرف وجهه وتعرف نسبه فدعاك إلى طريق واسع سهل أكنت تتبعه؟ قال: نعم - قال: فوالذي نفس محمد بيده إنك لفي أوعر من ذلك الطريق لو كنت فيه ولني لأدعوك إلى أسهل من ذلك الطريق لو دعيت إليه...»^(١).

﴿وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ عَنِ الصِّرَاطِ لَنُكَبُّنَ﴾^(٧٥) :

فالصراط المستقيم هو صراط المبدأ والمعاد وما بين المبدأ والمعاد، فالذين لا يؤمنون بالآخرة هم ناكبون عن ذلك الصراط حيث المعاد هو مصير المبدأ والرسالة، وهما مسير المعاد، وكما المعاد مصيرهما.

ولأن الصراط صراطان: في الدنيا والآخرة، فهم ناكبون مائلون عنهما، فساقطون فيهما إلى شفا جرف هار ﴿وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾^(٢).

﴿وَلَوْ رَحَّمْنَهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِمْ مِنْ ضُرٍّ لَلْجُؤُ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾^(٧٥) :

«لو» هنا تحيل رحمة الله لهم إذ صدوا على أنفسهم كل منافذها، ثم لا يرجى منهم الهدى بكشف الضر عنهم، بل لجوا في طغيانهم المتعرق في حياتهم يعمهون، فلماذا نرحمهم وهي عذاب على عباد الله الذين يضلون ويضلون تحت رحمة طغيانهم العمه.

﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَضُرُّعُونَ﴾^(٧٦) :

(١) الدر المنثور ٥ : ١٣ - أخرج عبد بن حميد وابن أبي حاتم عن قتادة في الآية قال : ما فيه عوج ذكر لنا . . . وذكر لنا أن النبي ﷺ لقي رجلاً فقال له أسلم فصعده ذلك فقال له نبي الله ﷺ أرايت فتيتك أحدهما إن حدث صدقك وإن أمتته أدى إليك والآخر إن حدث كذبك وإن ائتمنته حانك قال : بلى فتاي الذي إذا حدثني صدقني وإذا أمتته أدى إلي قال نبي الله ﷺ : كذاكم أنتم عند ربكم .

(٢) سورة البقرة، الآية: ٢١٣.

هؤلاء الصَّالِتُونَ الصَّالِبُونَ الصَّامِدُونَ في كفرهم لا يزرَحُهم عن ضلالهم لا رحمة بكشف الضر عنهم ولا عذاب ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ﴾ تخضعاً^(١) له عن كبرهم ﴿وَمَا يَنْضَعُونَ﴾ استغفاراً عما كانوا يعملون، والإنسان أياً كان يتحول حال الرحمة والعذاب إلى غير حاله، ففريق يشكرون حال الرحمة، وآخرون يستغفرون حال العذاب والزحمة، وأما هؤلاء المناكيد فكأنهم ليسوا من الناس، بل هم نسناس وسواس خناس دائبون في كفرهم بآله الناس:!

﴿حَتَّىٰ إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ﴾ (٧٧):

إن أبواب العذاب أربعة، اثنان في الأولى وآخران في الأخرى، فعذاب الاستئصال وما دونه يوم الدنيا، وأشد منه يوم الرجعة ثم أشد منهما يوم البرزخ، ثم الأشد في الأخرى، و﴿بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ قد لا يعني الأولى في الأولى، لمكان ﴿أَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ﴾ من ذي قبل ومواصفته بـ ﴿شَدِيدٍ﴾ والأولى أياً كان هي بجانب سائر العذاب غير شديد، و﴿حَتَّىٰ إِذَا فَتَحْنَا﴾ تضرب إلى المستقبل، ولأن ضمير الجمع في ﴿عَلَيْهِمْ﴾ يعم كافة الطغاة في تاريخ الرسالات فليكن العذاب الشديد يوم الرجعة^(٢) ﴿إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ﴾ حزناً معترضاً من شديد البأس.

- (١) في الكافي بإسناده عن محمد بن مسلم قال سألت أبا جعفر عليه السلام عن هذه الآية فقال: الاستكانة هي الخضوع والتضرع رفع اليدين والتضرع بهما وفي المجمع وروي عن مقاتل بن حيان عن الأصبع بن نابتة عن أمير المؤمنين عليه السلام قال قال النبي ﷺ رفع الأيدي في الاستكانة قلت وما الاستكانة؟ قال: أما تقرأ هذه الآية ﴿فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَضَعُونَ﴾ [المؤمنون: ٧٦] أورده الثعلبي والواحد في تفسيريهما وفيه قال أبو عبد الله عليه السلام الاستكانة الدعاء وفي الدر المنثور ٥: ١٤ أخرج العسكري في المواعظ عن علي بن أبي طالب في الآية أي لم يتواضعوا في الدعاء ولم يخضعوا ولو خضعوا لله لاستجاب لهم.
- (٢) نور الثقلين ٣: ٥٥٠ عن المجمع قال أبو جعفر عليه السلام: هو في الرجعة.

وأما يوم القيامة فكل أبواب العذاب مفتوحة عليهم وعلى سواهم من أهل الجحيم، ويوم البرزخ لكل باب تناسبه، وليس هناك باب جماهيرية تفتح على ذلك الجمع الطاغي.

﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ (٧٨):

«الأفئدة» هي القلوب المتفتدة، ذاتية بأنوار الفطرة، وعارضية بما تستوردها بالسمع والأبصار ظاهرية وباطنية من الآيات الآفاقية، والشكر على هذه النعم الثلاث هو استعمالها فيما أنشأت له من مزيد المعرفة ولكن ﴿قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ عِدَّة بين الجموع ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّاكِرُونَ﴾ (١) وعدة في هذه القلة حيث لا يشكرونه كلهم كما يحق ويستطيعون، فالشاكرون تماماً هم أقل قليل، والشاكرون بعضاً هم القليل، والكافرون هم الكثير.

﴿وَهُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ (٧٩):

الذرة هو الإظهار ف ﴿وَهُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ﴾ أظهركم أحياء ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ ثم يخفيكم إذ يميئكم ثم ﴿وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾.

﴿وَهُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ وَلَهُ اخْتِلَافُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ (٨٠):

فكما له اختلاف الليل والنهار أن يأتي كل خلف الآخر وخلفته وفي كل حكمة بالغة، كذلك له اختلاف الإحياء والإماتة كل يأتي خلف الآخر حسب الحكمة البالغة وهي أخرى وأعقل ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ وما هو الفارق بين الاختلافين إلا موادهما؟ فحين نعيش اختلاف الليل والنهار لحكمة معيشية دنيوية فانية، فهلا نعيش اختلاف الموت والحياة لحكمة معيشية أخروية باقية ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾؟!

(١) سورة سبأ، الآية: ١٣.

﴿بَلْ قَالُوا مِثْلَ مَا قَالَ الْأَوَّلُونَ﴾ (٨١) قَالُوا أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَأَنْتَا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٨٢﴾ لَقَدْ وَعِدْنَا نَحْنُ وَءَابَاؤُنَا هَذَا مِنْ قَبْلُ إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٨٣﴾ :

إنهم لم يؤمنوا بعد هذه الدلائل الباهرة والحجج الظاهرة ولم يقولوا آمنا «بل» قالوا كلمة الكفر، ولم تكن قولتهم من عند أنفسهم ﴿بَلْ قَالُوا مِثْلَ مَا قَالَ الْأَوَّلُونَ﴾ - ﴿يُضَاهِيَتُ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قَتَلْنَاهُمْ اللَّهُ أَفَن يُؤْفَكُونَ﴾ (١) قالوا قيلة الاستبعاد لبعثهم بعد إذ كانوا تراباً وعظاماً، وهو الذي خلقهم أول مرة، ثم هو يخلقهم وهو أهون عليه ﴿لَقَدْ وَعِدْنَا نَحْنُ وَءَابَاؤُنَا هَذَا﴾ الوعد ﴿مِنْ قَبْلُ﴾ طول تاريخ الرسالات ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ وخرافات ملفقة من «الأولين».

لقد كان مشركو العرب مضطربي العقيدة ومتناقضيها، فهم حين لا ينكرون الله خالق الكون يشركون خلقه به، وحين لا ينكرون أنه خالق الحياة ينكرونها بعد الموت، ولذلك هنا يستجوبهم فيما هم معترفون، ثم يتبناه لشيئت ما هم منكرون:

﴿قُلْ لِمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ (٨٤) :

لمن هي ومن فيها، ملكاً ومُلكاً وتديراً أصيلاً.

﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ (٨٥) :

أبعد ذلك الاعتراف الجاهر لا تذكرون؟.

إن مالك الكون هو - فقط - مدبره حسب الحكمة البالغة، دون شريك ولا معين ولا مشير، وقضية الملكية والمالكية الصالحة إصلاح المماليك وفصل القضاء بينهم فلا بد إذاً من يوم لفصل القضاء.

(١) سورة التوبة، الآية: ٣٠.

﴿قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ (٨٦) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا نُنْقِوتُ ﴿٨٧﴾ :

وَالْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ هو هنا عرش العلم والقدرة والتدبير والتقدير، وبصيغة أخرى هو عرش الربوبية المحلقة على كافة شؤون السماوات السبع ومن فيهن ومن بينهن، وأرضنا منها.

﴿سَيَقُولُونَ﴾ إن هذه الربوبية ﴿لِلَّهِ﴾ مهما اعتقدوا في ربوبيات هامشية لأربابهم فإنها أيضاً لله حيث هي أنفسها مخلوقة لله ﴿قُلْ أَفَلَا نُنْقِوتُ﴾ الله حيث تشركون به وتنكرون وحيه ويوم حسابه.

﴿قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (٨٨) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ ﴿٨٩﴾ :

﴿قُلْ مَنْ بِيَدِهِ﴾ علماً وقدرة وأية سلطة ﴿مَلَكُوتُ﴾ حقيقة الملك والمُلك لـ ﴿كُلِّ شَيْءٍ﴾ فهو أملك لكل شيء منها لأنفسها، فناصية كل شيء - وما به الشيء شيء بأسره - ليس إلا بيده لا سواه، ﴿وَهُوَ يُجِيرُ﴾ وينقذ كل شيء مستجيراً وسواه، حيث الفقر هو ذات كل شيء، والأخطار محلقة على كل شيء فهي بحاجة ذاتية إلى إجارة من الأخطار والأضرار ﴿وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ﴾ حيث لا مجير عليه كما لا مجير له إذ لا أخطار عليه ولا يد فوق يديه.

﴿بَلْ أَتَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ (٩٠) :

فليس هنالك قصور منا ولا تقصير في بيان الحق ﴿بَلْ أَتَيْنَهُم بِالْحَقِّ﴾ المطلق دون غبار عليه ﴿وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ في دعاويهم، وحتى في اعترافاتهم بهذه الحقائق فإنها تضاد واتخاذهم آلهة سواه، وعبادتهم لما سواه، بل وتركهم إياه كأن لا إله الا ما تهواه أنفسهم مما اتخذوه آلهة سواه:

﴿مَا أَخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذَا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَّ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَنَ اللَّهُ عَمَّا يُصِفُونَ﴾ (٩١) عَلِيمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَتَعَلَّى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٩٢﴾ قُلْ رَبِّ إِمَّا تُرِيْنِي مَا يُوعَدُونَ ﴿٩٣﴾ رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِي فِي الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٩٤﴾ وَإِنَّا عَلَى أَنْ نُرِيكَ مَا نَعْدُهُمْ لَقَدِيرُونَ ﴿٩٥﴾ أَدْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةِ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ ﴿٩٦﴾ وَقُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ ﴿٩٧﴾ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ يَحْضُرُونِ ﴿٩٨﴾ حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٠٠﴾ فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ ﴿١٠١﴾ فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٢﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ ﴿١٠٣﴾ تَلْفَحُ وُجُوهُهُمُ النَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ ﴿١٠٤﴾ أَلَمْ تَكُنْ ءَاتِي تُلَىٰ عَلَيْهِمْ فَكَفَرُوا بِهَا تَكْذِبُونَ ﴿١٠٥﴾ قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ ﴿١٠٦﴾ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ ﴿١٠٧﴾ قَالَ اخْسَرُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونَ ﴿١٠٨﴾ إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِي يَقُولُوا رَبَّنَا ءَامَنَّا فَاعْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ ﴿١٠٩﴾ فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سَخِرِيًّا حَتَّىٰ أَنْسَوْكُمْ ذِكْرِي وَكُنْتُمْ مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ ﴿١١٠﴾ إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿١١١﴾ قُلْ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُوا

لِئَنَّا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَسْئَلُ الْعَادِينَ ﴿١١٣﴾ قُلْ إِنْ لِيْشْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا لَّوْ
 أَنْتُمْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١٤﴾ أَفَحَسِبْتُمْ أَنْمَّا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنْتُمْ إِيَّانَا لَا
 تُرْجِعُونَ ﴿١١٥﴾ فَتَعَلَى اللَّهِ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ
 الْكَبِيرِ ﴿١١٦﴾ وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا
 حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ ﴿١١٧﴾ وَقُلْ رَبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ
 وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّحِيمِينَ ﴿١١٨﴾

كون إله من دون الله لا يخلو من اتخاذه إلهاً من قبل الله ولداً وسواه،
 أم أنه إله كما الله على سواء، ولكن ﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ﴾ اتخاذاً بالولادة إذ
 لم يلد، ولا اتخاذاً تشريعياً إذ لا شرف لعباد الله المقربين أشرف من
 العبودية، والمجاز مُجاز إذا أمكنت الحقيقة، فلأن حقيقة الولادة الذاتية
 مستحيلة في الله فكَذلك مجازها تبنياً لبعض خلقه.

فالولد الحقيقي جزء من حقيقة الوالد، فالوهمية الوالد تقتضي ألوهية
 لولده، ثم للولد التشريفي ألوهية مخولة مهما لم تكن له ذاتية ولادية، وهما
 منفيان لأي أحد تجاه الله.

وهنا تبقى ألوهية ثالثة هي ذاتية غير ولادية وكما لله، تنفيها عن غير
 الله: ﴿وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ﴾ وبرهان النقص ﴿إِذَا لَذَهَبَ...﴾ يتمحور
 الألوهية الذاتية، وعلى هامشها الولادية أم والتشريفية.

إذاً لو ﴿كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ﴾ إِذَا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ واستقل هو
 بنفسه بما خلق، وانفصل النظام وانقسم، فإن لكل شأنًا غير شأن الآخر،
 ولكل خلق يريده سوى ما يريده الآخر، فإن أنقسم الخلق بينهما ولكل
 نصيب، انقسم النظام، وإن تعارضا في كل خلق لتناقض الخلق واستحال
 النظام، ف «إذا شاء واحد أن يخلق إنساناً شاء الآخر أن يخالفه فيخلق

بهيمة، فيكون الخلق منهما على مشيتهما واختلاف إرادتهما إنساناً وبهيمة في حالة واحدة، فهذا من أعظم المحال غير موجود، وإذا أبطل هذا ولم يكن بينهما اختلاف بطل الاثنان وكان واحداً، فهذا التدبير واتصاله قوام بعضه ببعض يدل على صانع واحد...»^(١).

فهذه الآية تضم حججاً ثلاثاً ﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ﴾ - ﴿وَمَا كَانَتْ لَهُ مِنْ إِلَهِ إِذَا لَدَّهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ﴾ - ﴿وَلَعَلَّا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾.

فالثاني لزوم ذهاب كل آله بما خلق مستقلاً بما خلقه، يعرفه حسب ناموس خاص، فيصبح لكل جزء من هذا الكون، أو لكل فريق من الخلق، ناموس خاص لا يلتقي فيه بناموس عام يصرف الجميع، وبذلك تنقسم عرى الوحدة في التدبير ويختل النظام رغم وحدة التدبير واتصاله.

والثالث لزوم علو كل على زميله استقلالاً بعرش الألوهية وقضاء على نقص الشركة، علواً على ألوهيته ذاتاً أم صفات أو أفعلاً، استقلالاً بما هو قادر عليه.

والقول أننا نفرض وحدتهما في الإرادة فلا يتنازعان، يرده أن الوحدة المطلقة قضيتها الوحدة من جميع الجهات فأين الاثنان، فحتى لو صحت وحدة الإرادة لوحدة العلم والقدرة والحكمة، نتساءل أليس بينهما أي فارق ذاتي أم صفاتي؟ ففي فرض وجود الفارق - وهو لزوم التعدد - نقول إن كان الفارق لكل نقصاً فهما ناقصان، وإن كان لكل كمالاً فكل يفقد كمالاً يجده الآخر، فهما - إذاً - ناقصان من وجه ثان، فليسا إلهين اثنين.

(١) تفسير البرهان ٣: ١١٨ عن تفسير القمي في الآية ثم رد الله ﷻ على الثنوية الذين قالوا بإلهين فقال: ما اتخذ الله... قال قال: لو كان إلهين كما زعمتم فكأننا يختلفان فيخلق هذا ولا يخلق هذا يريد هذا ولا يريد هذا وليطلب كل واحد منهما الغلبة لنفسه ولا يستبدل كل واحد بخلقه وإذا أراد... لطلب كل واحد فيهما العلو وإذا شاء... وهو قول الله ﷻ: ﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ...﴾ [المؤمنون: ٩١] وقوله: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء: ٢٢].